

الحلم والتعلم ...

للاستاذ محمود عزت عرفة

(تمة)

« إنما السلم بالتعلم ، والحلم بالتعلم ، ومن يتخير الخير
بفضله ، ومن يتوق الشر يوقه »
حدثت شريف

نماهى الرذائل :

قال طرفة في شعره : حنانيك ، بمض الشر أهون من بعض !
وتلك جملة موجزة في لفظها وفي معناها ، ولكنها تنطوي
على حكمة بليغة ، وتكن نظرية في الأخلاق عظيمة النفع إذا
نحن حاولنا أن نفهمها وأن نحسن تطبيقها ، ومؤدّى هذه النظرية
أن يتقبل الإنسان الشر من الشرور ، ويحتمل غضاضة الرذيلة
من الرذائل ، تخلصاً بهما من شر ورذيلة أبلغ ضرراً وأوخم عاقبة
وتعد هذه مرحلة - لا بد منها - تتحول بها من وضع إلى
وضع ، فنخلص بأنفسنا من غياض الشر إلى رياض الخير ،
وننتقل بجهور أخلاقنا من منافع الرذيلة إلى منافع الفضيلة .
ذلك أن الخير (كالحلال) بيّن ، والشر (كالحرام) بيّن ،

وبينهما أمور متشابهة ، يلبس فيها حق بباطل ، ويلتقي مباح
بممنوع ...

وتحذير الرسول عليه الصلوات ، في حديثه المعروف ، من
هذه المواطن التي يشتبها فيها الحرام بالحلال إنما يتجه إلى الأخيار
الذين أحرزوا من الفضيلة القسط الوافر . لأن تلبس أحدهم
بالتشابهات يعد ارتكاساً له بعد عاقبة ، وانحداراً لنفسه بعد ارتقاء ،
أما من ران الشر على قلوبهم ، وملكك الرذيلة عليهم وردهم -
وصدرهم ، فهؤلاء سبيلهم إذا أرادوا الجلاص لأنفسهم أن يحاولوا
« الترقى » أولاً إلى درجة التشابهات ، لأنها الطريق المفضى بهم
فيها بعد إلى الخير والفضيلة خالصين من كل شائبة . وبعد هذا
الترقى إلى التشابهات في حقهم فضيلة وتقدما ، وإن عُدد في حق
الفضلاء من غيرهم شراً وارتكاساً ، ولا غرو لحسنات العاصين
سيئات المطيعين !

وقد ذكرنا قبل من دواعي (التحلم) ما يُعدّ وسائل إلى
بلوغه وتحصيله ، وضروباً من ترويض النفس وإغرائها على -
الأخذ منه بنصيب .

ونضيف هنا إلى ما سبق هنالك أن التحول بالنفس من معرفة
الغضب والحدة ، إلى كمال الحلم وفنسيمة الإسجاح ، قد لا يتم
دفعاً ؛ وإنما يكون على مرحلة أو مراحل نماير فيها النفس التي

في أذهاننا باطلة . فكيف نعم ما يؤثر فيها وما لا يؤثر فيها على
وجه التحقيق ؟

« والذي يثبت في روعنا أن الكائنات خلق واحد يدور
حول (الوحدانية) ، ولا فرق بينها غير الفرق بين التعميم
والتخصيص ..

« فالتميم مظهر المادة ، والتخصيص مظهر العقل والحياة .
« فالمادة في أبسط صورها شمع « عام » لا فرق فيه بين
مكان ومكان من الفضاء » .

ولقد ميز ديكارت من قبل بين المادة والفكر ، وجعل في
العالم ثنائية يصب الجمع بينهما بعد ذلك . غير أن اسبينوزا بالذات
وهو من المدرسة الديكارتية ، اضطر للتوفيق بينهما إلى القول
بوجود ما يسميه الامتداد العقلي

مهما يكن من شيء فإن اهتمام العلم الحديث إلى أصل المادة
وأنها ذرة أو جزء لا يتجزأ ، وأن هذه الذرة هي في النهاية
إشعاع أو طاقة ، كل ذلك لا يحل مشكلة المادة والعقل ، لأن
العقل ليس إشعاعاً ... من يدري لعله كذلك ولكننا لا نستطيع
أن نجزم بشيء .

والعبر التي نأخذها من كتاب العقاد كثيرة ، منها أن
آجاء مفكرينا وجهة فلسفية دليل على الرق العقلي ، والسمو
إلى عالم المعاني ، ومنها أن استماع الجمهور لهذا النوع من
التأليف ، بل إقباله عليه . دليل على رقى الجمهور بل على انتقاله
من طفولة الفكر إلى شبابه .

والجامعة الفلسفية هي نهاية التقدم .

أحمد فؤاد الأهواني

لينفك عن الثدي إليه ثم ينقل عنه إلى غيره . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلب بعضها على بعض . هـ
وهذا العلاج الذي وضعنا له عنوان « تاحى الرذائل » ينطوى على خطر غامض دقيق يستوجب الابتعاض لمزاوته وأخذ الريد به إلا كل طبَّ خبيراً بأدواء النفوس ، عارف بالملل الخلقية دقيقتها وجليلها ، وأنها أسعب علاجاً ، وأنها أيسر محولاً ... وإلا تفاتت الغلة بمرضه وهو يحاول شفاؤه ، أو مات بين يديه وهو يريد إحياءه ...

وقد سبق الغزالي إلى توضيح هذه الخطورة وإلى التحذير منها - ركن للغزالي من سبق إلى مثل هذه الحقائق النفيسة الخالدة - فهو يقول بعد ذكر علاج البخل (بتكلف السخاء على قصد الرياء) : إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبدل الأقوى بالأضعف ، فإن كان الجاه محبوباً عنده كاللال فلا فائدة فيه ، فإنه يقطع من علة ويريد في أخرى مثلها !

ويضرب لنا الغزالي في موضع آخر مثالا حسيماً عجيباً لتناحر هذه الرذائل واصطراعها في النفس حتى تضعف تفتى جميعاً ، وتحل محلها الفضيلة التي جعلناها هدفنا من العلاج ، فيقول : مثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن البيت تستحيل جميع أجزائه دوداً ، ثم يأكل بعض الديدان البعض حتى يقل عددها ، ثم يأكل بعضها بعضاً حتى ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين ، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداها الأخرى فتأكلها وتضمن بها ، ثم لا تزال تبقى جائمة وحدها إلى أن تموت . فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلب بعضها على بعض حتى يجمعها ويجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع المنايا بمحوها وإذابتها بالمجاهدة . هـ

هاتم :

الحلم كسائر الفضائل وسط ممدوح بين طرفين مذمومين . فإذا نحن « تحيينا » منه متجهين إلى أحد طرفيه كان ذلك تقريباً في الحلم يتحول بنا إلى الحدّة وإلى السفاء وسرعة الغضب . وإذا نحن « تزيدنا » فيه متجهين إلى طرفه الثاني كان إفراطاً يفضي إلى الضعف والخور وقدم الحية ، وكلا الطرفين مذموم .

نعالجها من حال إلى حال . فقد نستطيع مثلاً أن نفتأ من حر غضبها وشدة بادرتها بنوازع - نجعلها تستريح إليها مؤقتاً - من الكبر والاستهانة بالسيء وتحقير شأنه .

ونحن لم نسد في هذا أن نحولنا بها من رذيلة إلى رذيلة ، ولكن إذا صرنا النفس على ذلك ، وترحلت عما استولى عليها من الغضب والحدّة إلى خلق طارئ من الأنفة والاستكبار أسكننا أن نعالج هذه الحالة الأخيرة بوسائل علاجها ، ثم لا تزال تنتقل بالذفس من وضع إلى وضع حتى تخرج عن حد الرذائل والتشبهات جملة ، وتنتهي إلى الخير المحض الذي نتوخاه لها . وقد نص الغزالي على هذه الوسيلة من العلاج في مؤلفاته غير مرة فهو يقول مثلاً في كتاب « رياضة النفس وتهذيب الأخلاق » من سفر الإحياء : من لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يدخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ، ولم يسمح بضعها دفعة ؛ فينبغي أن ينقله - أي المرشد - من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ؛ كالذي يفسل الدم بالبول ، ثم يفسل البول بالماء ، إذا كان الماء لا يزيل الدم . وكما يرغب الصبي في المكثب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياضة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة . هـ .
وفي « ربيع المهلكات »^(١) من سفر الإحياء إشارات ممتدة إلى هذا العلاج يدرجها الغزالي في أعقاب كل خلق مرذول عند النص على أوجه علاجه . ففي كتاب ذم البخل وذم حب المال يقول : ومن لطائف الحيل فيه أن يمدح نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبدل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود ؛ فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب لها خبث الرياء . ولكن ينطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بملاجه . ويكون طلب الإسم كالتسوية للنفس عند فطامها عن المال ، كما قد يسلي الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالمصافير وغيرها ، لا ليخلى واللعب ، ولكن

(١) يقسم الغزالي مؤلفه النفس (إحياء علوم الدين) أربعة أرباع : ربيع البادات وربع العادات وربع للهلكات وربع النجيات ؛ وكل ربع يتألف من عشرة كتب فجملة (الإحياء) أربعون كتاباً .

« المطلوب من سفة الغضب حسن الحجة ، وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً ؛ وبالجملة أن يكون في نفسه قوياً ، ومع قوته منقاداً للعقل »

فليس ينفي المرء إذن أن يُعرف بالحلم في موضعه ما لم يعرف بالغضب كذلك في موضعه ؛ وإذا قلنا (الغضب في موضعه) ، فقد جعلناه فضيلة وحكمة ، إذ ليست الحكمة إلا وضع الأمور في مواضعها . بل لو قرئنا ذكر أية رذيلة بقولنا (في موضعها) لأصبحت فضيلة يُحث عليها ويشاد بذكورها . فالكذب في موضعه فضيلة وقد نسميه : حسن التأتى ، واللباقة ، وحسن التصرف . والجبن في موضعه فضيلة ، نسميه : الحرص ، والتوق ، والحذر . وهكذا .

المقياس الصحيح إذن أن نواظم بين تصرفنا — بالقول أو بالعمل — وبين الموقف الذى نكون فيه ؛ وبقدر اختلاف المواقف يكون اختلاف التصرفات . والخطأ في التطبيق هنا يتأتى من الخلط بين كل موقف وما يلائمه من تصرف . وأحسب أن النعمان بن المنذر كان أحد من أخطأوا على هذا الوجه . فقد روى أنه أتى برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيماً فغفا عنه ، والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعاقه . ثم أنشد يقول :

تعفو اللوك عن المظير م من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير ر ، وليس ذلك لجهلها ...
لكن يُعرف حلهما و تخاف شدة ذلها !

وهذا سوء تصرف منشؤه الخلط بين مواطن العفو ومواطن العقوبة نعم ، كان من حق النعمان أن يعرف الناس حله ، وأن يخوفهم شدة ذلحه ، لكن على أن يجعل لكل من الخالين موضعاً لا يمدوه ، وشرطاً لا يخل به . فأما وقد فاته ذلك فقد صير حله تقريباً وعقوبته إفراطاً ... وكلا الأمرين وضح^(١) في جبين الحق ، وانحراف في ميزان الحكمة والعدالة .

(تم الحديث — جرباً) محمود عزت عرفة

(١) من معاني الرضح : الضوء والفرجة والشيبة ، والبرص ، والمعنى الأخير نريد ؛ ومنه سمي جذية الأبرش بالوضوح انظر القاموس

أما الأول فخاله معروف ، والتحذير من الغضب كثير ، لأن النفوس إليه أسرع ، فكان التخويف منه أوجب وأولى .

وأما فقد الحمية فأفة أقل — في سواد الناس — من الغضب انتشاراً ، ومع ذلك يتردد ذمها كثيراً ، لأنها الإفراط التناهى في الحلم الذى يتحول به من ممدوح الفضائل إلى مقبوح الرذائل . يقول الغزالي في هذا المعنى : « لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر ؛ فلذا كثر تناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف في عمله حسناً ، كما أن الرفق في عمله حسن . فإذا كان الواجب هو العنف ، فقد وافق الحق الهوى ، وهو الذم من الزيد بالشهيد ا »

هذا ، ومن المشاهد الذى يستحق التسجيل أن السفة قد يكون مستحسناً في بعض المواطن ، وربما يبدو في بعض الظروف واجباً حتى ليذكر في معرض المدح . ومن هنا يقول عمرو بن الماض : أكرموا سفهاءكم فإنهم يقونكم العار والشارب ويقول مصعب بن الزبير : ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا ! ويقول الشافعي ناصحاً للتعهاء : ينبغي للفتية أن يكون منه سفية ليمافه عنه ! وانظر بعد إلى قول أبي تمام في مدح إسحق بن إبراهيم المصعبى :
إن المنايا طوع بأسك ، والوغي ممزوج كأسك من ردى وكوم
والحرب تركب رأسها في مشهد عدل السفيه به بألف حلیم ا
في ساعة لو أن تقهنا بها

— وهو الحكيم — كان غير حكيم
وفي حديث شريف : خير أمتى أحداؤها (من الحدة) الذين إذا غضبوا رجما . ومن مأثور قول الشافعي : من استغضب فلم يغضب فهو حمار . قال الغزالي : « فن فقد قوة الغضب والحمية أسلا فهو ناقص جداً . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال : أشداء على الكفار رحماء بينهم . وقال نبيه صلى الله عليه وسلم : جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ... وإنما النلظة والشدة من آثار قوة الحمية ، وهو الغضب » .

على أن الغزالي يحدد لنا صفة الغضب في موضع آخر فيقول :